

الأدب في سيرة أعلامه :

ملتن...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجبال والحرية والخيال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

- ١٥ -

—>>><<<—

بين الطباعة والحرية :

واستبد شارل بالأمر أحد عشر عاماً في أثناءها الإنجليز
ما شاء له طغيانه من ضروب المصف والأذلال ، وكان وليم لود^(١)
الذي رقى عام ١٦٣٣ إلى منصب كبير الأساقفة مشير في الشؤون
الدينية ولورد استراford مشير في الشؤون السياسية .

(١) حمل ملتن على لود حملة شديدة في قصيدته لبيداس أثناء مقامه
في هورتون .

التي سبها الشاعر لصاعت نصف جغرافية بلاد العرب ، إذ من
المعلوم أن معجم ياقوت ومعجم البكري كان الشعر مرجعهما
الأول لوصف بلدان كثيرة . على أنهما لم يستوعبا كل شيء ، ولا
زال العناية بدراسة شعراء كالمتنبي والبحتري وأبي تمام مثلاً من
شأنها أن تساعد على تصحيح أسماء بلدان كانت معروفة في
العصر المباسي ، ولكنها وردت منلوطة في توارخ الطبري ،
وابن الأثير « هـ .

وبعد ، فهاتان ناحيتان هامتان من الشعر طالت غفلة النقاد
عنهما قروناً . ويبدو أن أول خطوة عملية ينبغي لنا اتباعها هي
أن نضيف إلى كل (ديوان تاريخي) بعد ترتيب قصائده ملحفاً
بتراجم أشهر الأعلام التي ورد ذكرها فيه ، ثم معجماً لأهم البلدان
التي نوه فيه بذكرها ...

وكيف كان أمر شعرائنا أو القول فيهم ، فإن من اليسير أن

وامتحننت الحرية امتحاناً طال ليله واشتد بالناس هوله ،
وسلط لود على البيوريتانز من أنواع الاضطهاد وأساليب المصف
ما شاء له سلطانه وما أملاه غيظه وغلظه فكانت تكوى جباههم
وصفحة وجوههم بالحديد الحمي أو تقطع أطراف آذانهم وأنوفهم
وليس لهم منجاة من هذا العذاب إلا أن يطرحوا عقيدتهم ؛
ولكنهم كانوا يمدون آذانهم وجباههم ووجوههم وأنوفهم جماعات
إلى من يكويها أو يتحيفها دون أن يذل لهم إياه أو تهين لهم عقيدة ،
وكانوا كلما أمن لود في تمذيبهم ازدادوا تمسكاً بمذهبهم وازداد
مذهبهم رسوخاً وانتشاراً كالشجرة كلما امتدت إليها الأيدي بالتقليم
تغلقت في الثرى جذورها وامتدت في الجو فروعها .

ولم يقتصر التعذيب على عامة البيوريتانز ، فامتد إلى الخاصة
وشمل كل من كتب شيئاً ضد الملك أو الأساقفة ، وكان يعين
الملك في طغيانه محكمتان : إحداهما هي محكمة غرفة النجم ، والأخرى
محكمة عليا أنشأتها إليزابيث أول الأمر للحكم على من يخالف قرار
توحيد العبادة ؛ وكان من الضحايا العديدين لهاتين المحكمتين
أحد كبار رجال الدين فضرب وحبس ووضع في الأسفاد وقطعت
أذناه لأنه كتب ينتقد لود وأساقفته ؛ وأحد رجال القانون لأنه

أن نستقرى ما خالف الصواب من شعرهم ، ثم تلقى على ظلمته
ضوءاً من حقائق التاريخ الثابتة بعد أن ندرج كل قصيدة في
موضعها من مجموعتها حتى تتصل بما قبلها وبما بعدها من شعر ،
اتصالاً قوياً وثيقاً تنهيج له نفوس طلاب الحقائق ، وتكتسب
به الدواوين حرارة وحيوية يبدو معها كل شاعر إنساناً حياً ،
لا شبحاً باهت الظل متخيل الوجود . بل تكتسب المعاني
والحوادث السرودة نفسها قوة لم تكن لها من قبل ، وتنطبع
في الأذهان بهيئة لا يدرك تناسقها وروعة جمالها إلا من تهيأ له
— في مرة أو أكثر ... أن يمارس هذا الترتيب بين القصائد ،
فيرى كيف تنطق الحقيقة الجافة بلسان الخيال الرطيب ، ويشهد
كيف يتواطأ التاريخ الدقيق والأدب الرقيق معاً على غزو العقول
بسحر جمالها ؛ وكيف يتجلىان في مرامي القول كالفرقدين ، تنزلا
من أفق واحد ، ليشرقاً على دنيا واحدة .

محمود عزت هرف

فماذا عسى أن يكون وقع هذا في إنجلترا
ولجأ الملك إلى الحرب وتأهب الاسكتلنديون للقتال وتلاق
الجيشان فأحس الملك ضعفه فهادن الاسكتلنديين وهادنوه وسكنت
ريح الحرب إلى حين .

وأحس الملك بضرورة دعوته برلمانا فدعا ذلك البرلمان في
ربيع سنة ١١٤٠ وعرف باسم البرلمان القصير لأنه لم يلبث أن
أنسكرك على الملك فرض ضريبة السفن ، ولا ساومه الملك وعرض
أن يتنازل عن ضريبة السفن نظير أن يمنحه البرلمان مبلغا معيناً
رأى البرلمان أن قبوله هذا العرض يتضمن الاعتراف بحق الملك
في فرض تلك الضريبة فأبى إلا أن يكون تنازل الملك عنها بغير
 قيد وضائق الملك بالبرلمان غله في نفس العام .

ولكن الاسكتلنديين عبروا نهر التويد في الصيف زاحفين
على إنجلترا ، ودعا الملك مجلساً من الأعيان فأشار هذا المجلس
بوجوب الاستناد إلى برلمان ، ولم يجد الملك بدا من الإذعان فدعا
برلماناً جديداً في نفس السنة وعرف هذا البرلمان بالبرلمان الطويل ،
وظهر في هذا البرلمان زعماء أشداء كان من أشهرهم بيم وهوبن
وألثير كرمول ...

ووجد البرلمان الفرصة سانحة ليصفي حساباه فوجه إلى
لود واسترافورد تهمة الخيانة العظمى للشعب الإنجليزي وأطلق
السجناء من أنصار الحرية ، وأزال من الكنائس كل ما يسلها
بروما من مظاهر وسور وتماثيل ، واحتاط البرلمان للمستقبل
فأصدر قراراً يقضي بأنه لا يجوز أن يتغنى أكثر من ثلاث
سنوات بغير أن يدعى برلمان ، وقدم استرافورد إلى المحكمة ،
 ووضع تحت الحراسة كيلا يهرب ، وكان لا بد من موافقة الملك
حتى تقام الحراسة فوافق الملك مع أنه وعد استرافورد أن يدافع عنه
وأدين استرافورد وأعدم ونفس أنصار الحرية الصعداء ، وبالغ
البرلمان في الحيلة فأصدر قراراً خواء ألا يجوز حل البرلمان إلا
بموافقة أغلبية أعضائه ؛ وقفى البرلمان بكل محكمة غرفة النجم
والمحكمة العليا المختصة بالشؤون الدينية

وخيل لأنصار الحرية أنه لم تمد تمرضهم عقبات ، ولكنهم
ما لبثوا أن أحسوا روحاً رجعية في مقاعد البرلمان نفسه ، وذلك

كتب كتاباً يعيب فيه على من احترف التمثيل من الأوانس
والسيدات مسلكن فظن أنه يعرض بالملكة فيها كتب ولم يك
جزاؤه أخف من سالفه ؛ ومن هذين الثلثين ندرك مبلغ ما حل
بالناس من ألوان المذاب .

ولما كانت المشكلة المالية هي التي تضطر الملك إلى الاستمانة
بنواب البلاد ، فقد أشار سترافورد على الملك باتباع سياسة
الاقتصاد ليطرد استغناؤه عن البرلمان ، وكانت الحرب قد وضعت
أوزارها ، فتجسنت الحالة المالية إلى حد ما وخيل إلى سترافورد
أن ليس للبرلمان رجعة .

ولكن الملك وازن بين دخله ومنصرفه فلم تسره الموازنة
ووجد نفسه لا يزال في حاجة إلى زيادة الدخل وإلا اشتدت به
العناقة ثانية ، فسلك سنة ١٦٣٤ مسلكاً كان أبعد ما سلك عن
الصواب ، وذلك أنه عمد إلى فرض ضريبة مباشرة ، وكانت تسمى
ضريبة السفن ، وهي ضريبة قديمة كانت من حق الملك وفق
الدستور أن يفرضها على الوائى إذا تعرضت المملكة لخطر الحرب
فتقدم الوائى سفناً أو ما لا يقوم مقامها ؛ ونظر الإنجليز هذه المرة
فإذا بالملك يفرض هذه الضريبة وليس نعمة من خطر يهدد المملكة
ولكن الملك احتج بأنه يبتنى بها مطاردة ما يهدد التجارة من
القراصنة ؛ وتمادى الملك فخرج على القانون والعرف وفرض هذه
الضريبة لا على الوائى فحب بل وعلى داخلية البلاد ، ثم استمر
يفرضها عاماً بعد عام وكان الأصل فيها ألا تفرض إلا حين الخطر
وبأبى القدر إلا أن يرتطم الملك وكبير أساقفته في ورطة
كانت هي القاضية عليهما ، فقد شاء لود أن يدخل في اسكتلندة
النظام الأسقى على الرغم من تمسك الاسكتلنديين بنظام الكنيصة
البرسبتيرية ، وأعد لود كتاباً للصلاة على نمط كتاب الصلاة في
إنجلترا ، وأراد أن يحمل الاسكتلنديين على اتباعه في كنائسهم ،
فثار الناس هناك وأعلنوا سنة ١٦٣٨ في مجلس عام رفض النظام
الأسقى وطردوا الأساقفة الذين أرسلهم شارل إليهم فكان هذا
تحدياً صريحاً لمشينة الملك ؛ وأصبحت المسألة في الواقع تتصل بحق
شارل في حكم اسكتلندة أكثر مما تتصل بالنزاع الدينى ، وبات
الموقف بالغ الخطورة ، فإذا استطاع الاسكتلنديون أن يمسوا الملك

إليه نظرة شديدة ثم خرج هادئ الخلق يعلم أن قد
« طارت الطيور الحرة » .

ونسامت لندن بما كان من أمر الملك فهبت المدينة التي لقيته
بمقاومتها منذ قليل تدافع عن النواب ، واشتدت حماسة الناس ،
وصمموا على أن يمود الأعضاء إلى مجلسهم في مظاهرة كبرى
وأعدت الزينات في الشوارع وعلى صفحة النهر في القوارب ،
وكان لا بد أن تمر المظاهرة بقصر الملك فلم يطق الملك أن تقع
عيناه عليها أو تسمع أذناه ضجيجها فترك المدينة .

وأخذ البرلمان بعد المدة للدفاع عن كيانه ، وأعد الملك عدته
ليسحق بها البرلمان ومن يظاھره من الناس ، واندلعت نيران
الحرب الأهلية التي انتهت بهزيمة شارل بعد أن دارت رحاها
أكثر من أربع سنوات

الخفيف

(ينسج)

اطبعوا مطبوعاتكم في:

مطبعة الرسالة

حيث تجدون فيها :

الدق ، والنظافة ، والسرعة

||

والدقة ، واعتدال الأسعار ...

بسبب مغالاة البيوريتانز ضد النظام الأسقي ، فقد قدم هؤلاء
مقترحا إلى البرلمان يقضى بإزالة هذا النظام كله وسمى مقترحهم
باسم مقترح الأصل والفرع ، ولكن بعض النواب كانوا يميلون
إلى النظام الأسقي فمارضوا هذا المقترح وانضم إلى هؤلاء نواب
آخرون أشفقوا من تطرف البرلمان في استلاب سلطة الملك ورأوا
أن الملك قد أذعن أكثر مما يجب أن يذعن وتوجسوا خيفة من
عواقب هذا التطرف كأنما يلح لهم شبح القوضى .

وأخافت هذه الرجمية بم وزملاءه ، فأقدم بم على عمل خطير
وهو ما سمي الإعلان الأعظم وهو عريضة قدمت إلى البرلمان وفيها
جميع ما ارتكب الملك وأعوأنه من أخطاء في السياسة والدين منذ
بداية عهده وطلب إلى البرلمان أن يقرر صحة ما جاء فيها ، وبعد
مناقشة عنيفة في جلسة طويلة استمرت الليل كله وافق البرلمان
عليها بأغلبية تسعة أعضاء فظهرت هذه العريضة عدد
أنصار الملك في البرلمان وتبين أنه عدد لا يستهان به .

وترابت مخاوف بم وأنصاره ، وكان الملك قد ذهب إلى
اسكتلندة على أثر وفاق عقده البرلمان بين إنجلترا والجنس النافق
اسكتلندة ، فلما عاد شارل إلى إنجلترا استقبل في لندن بمقاومة
عظيمة ...

وأنما أعجزته تلك الرجمية في مقاعد البرلمان وهذه الحماسة
التي لقيها بها أهل لندن بأن يضرب ضربة ، فخطا خطوة جريئة
ود كثير من أنصاره أنفسهم لو أنه لم يخطها ، وذلك أنه وجه في
سنة ١٦٤٢ إلى خمسة من أعضاء البرلمان على رأسهم بم تسعة
الخيانة العظمى ، وبعد يومين ذهب إلى البرلمان بنفسه على رأس
قوة من حرسه وقفت عند بابه شاكية السلاح وطرق شارل الباب
ودخل القاعة ليقبض على الأعضاء الخمسة ، ونهض النواب وقوا
وحسروا القبعات عن رؤوسهم ، وأجبه الملك إلى منصة الرئيس
نفر أمامه على ركبتيه وساد الصمت فلا يسمع إلا همس ، ودار
الملك بمينيه يطلب الأعضاء فلم يتبين في الصفوف منهم أحدا فقد
نما إليهم ما اعترمه الملك قبل حضوره بدقائق فقروا فسأل عنهم
الرئيس فأنكر معرفته متى حضروا ومتى انصرفوا ، ونظر الملك